إسلامية المعرفة

المفاهيم والقضايا الكونية

أ.محمد أبو القاسم حاج حمد *

منهج البحث

يعتمد منهج البحث على ارتباط التفاعل بين جدليات ثلاث ، هي جدلية الغيب وجدلية الإنسان وجدلية الطبيعة في إطار كوني واحد ، وذلك عبر أداة معرفية هي **"الجمع بين القراءتين"** ، قراءة أولى بالله وبالوحي الإلهي بصفة الله خالقاً : [**أقرأ باسم ربك الذي خلق** (1) **خلق الإنسان من علق** (2)] وقراءة ثانية موضوعية بمعية الله وبالقلم [**أقرأ وربك الأكرم** (3) **الذي علم بالقلم** (4) **علم الإنسان ما لم يعلم**(5)] "العلق ، جزء:30". فالقراءة الأولى كونية تستمد من الوحي الغيبي عبر القرآن، والقراءة الثانية موضوعية ، حيث يهيمن القرآن بالرؤية الكونية للقراءة الأولى على شروط الوعي الإنساني في الواقع الموضوعي **"ليستوعبها"** في إطارها العلمي النقدي التحليلي **"ويتجاوزها"** باتجاه كوني مستمد من الوحي الإلهي القرآني . فالقراءتان ليستا متقابلتين قراءة في القرآن تقابلها قراءة في الكون ، وإنما هي قراءة بالقرآن تهيمن على قراءة الكون المتحرك بشروطه الموضوعية .

المنهج في حد ذاته يعتبر إشكالا منهجياً ، أي مدى إمكانية الأخذ بالقراءة الأولى التي تستمد من الوحي الإلهي وهو غيبي لتصبح منهجاً مقروءاً قابلاً لأدنى شروط المنهجية في الاستدلال العقلي وأعلاها في الاستقراء العلمي ؟!.

إنّ القراءة الأولى بالوحي القرآني تستوعب الحالتين ، الاستدلال العقلي والاستقراء العلمي ولكنها تتجاوزهما معاً بإطارها الكوني ، لأنّ طبيعة ما هو استدلالي أو استقرائي ترتبط بالظاهرة وحركتها في مضمنات المكان والزمان ومتاحاتها الإختبارية ، في حين تعالج القراءة الأولى ما يمتد في الزمان المكان بأكبر من شروط الواقع الموضوعي فالقراءة الأولى بالنسبة للإنسان تبدأ معه ما قبل ميلاده وتستمر معه في حياته ثم ما بعد مماته. كما أنّ علاقتهما مع الظاهرة الطبيعية لا تنتهي في حدود الإختبار الموضعي وما فيه من ترابط سببي، وإنما تنتقل بالظاهرة الطبيعية إلى آفاق الخلق الكوني التي تتجاوز القوانين الاختبارية الوضعية للتأكيد على مفهوم **"الخلق"** الإلهي الأعقد تركيباً في مقابل مفهوم **"الجعل"** الذي يرتبط بالصيرورة الموضعية التي يمكن استدراكها إستدلالاً أو إستقراءً : [**إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم الإ كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير** (56) **لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون**(57)] "غافر ، جزء : 24".

---

* المستشار العلمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي.

فهذا المنهج الذي نقول عنه أننا **(نبتعثه)** ولا نخترعه بحكم أن أصوله موجودة في القرآن إنما يعتمد في الأخذ به على الجملة الواعية لدى الإنسان وهي **"السمع والبصر والفؤاد"** . وهي الجملة التي تستصحب كل ما هو استدلالي أو استقرائي كما سيظهر ذلك لاحقاً حين تعرضنا للابستمولوجيا المعاصرة ولكن دون أن تبوتق جملة الوعي الإنساني الثلاثي هذه نفسها بالبوتقة الوضعية التي تحد من شروط انطلاقها الكونية ، بتقدير أن الإنسان نفسه وعبر جملة الوعي هذه **"مطلق"** في حد ذاته مستجيب بحكم التركيب **"المطلق"** للكون الذي يواز يه ، ومستمداً من الوحي القرآني **"مطلق الوعي"** الذي يعادل الوجود وحركته . فنحن أمام مطلقات ثلاثة ، هي القرآن والإنسان والكون ، وفوقهم إله أزلي.

وعلاقة الاستواء هذه بين المطلقات الثلاثة : القرآن والإنسان والكون ، أساسية في بناء المنهج ، لأنّ القرآن بمطلقه هو الوعي الوحيد الذي يقابل مطلق الإنسان ومطلق الكون، فهو يتضمن الوعي المتكافئ مع مطلق الإنسان والكون عبر القراءة الأولى ، أما القراءة الثانية فلا تستطيع بحكم مستوى إنتاجها البشري وسقف تطورها أن تتيح مطلق الوعي . إذ أنّ مرجعية ومصدرية الوعي المطلق إنما تستمد من ذات المصدر الذي شكل مطلق الإنسان ومطلق الكون وهو **"الخالق"** سبحانه وتعالى .

لهذا فإنّ الإيمان بهذا الخالق وإطلاق جملة الوعي الإنساني من سمع وبصر وفؤاد ، واستيعاب وتجاوز كل ما هو استدلالي واستقرائي والهيمنة بالقراءة الأولى على القراءة الثانية للنفاذ إلى جدلية الغيب والإنسان والطبيعة ، كل هذا يُشكِّل **"منظومة"** الأساس لهذا المنهج . فميزان هذا المنهج هو مدى ما يولِّده من **"قناعة"** لدى المتلقي تساعده على شق طريقه هو نفسه باتجاه القراءة الأولى . ثم بعد ذلك فمن شاء فليقتنع ومن شاء فليرفض، فالإنسان نفسه هو المقياس.

إشكاليات المصطلح وقاعدة المفاهيم :

"إسلامية المعرفة" عنوان مركب من **"إسلامية"** ومن **"معرفة"** ، في حين أنّ **"الإسلامية"** فيما يراها الناس "تخصيص ديني" في مقابل **"معرفة"** هي عامة غير قابلة للتخصيص ، وليس التخصيص الديني فقط ، وإنما تتسع لعديد من المناهج وتستبطن العديد من الإيديولوجيا ؛ فتركيب المعرفة على الإسلامية يحمل تخصيصاً وتحديداً يوصف هذه المعرفة الإسلامية مفارقة لغيرها على مستوى المناهج الأخرى فهل يمكن مصادرة الإنتاج البشري العام لصالح معرفة خاصة ؟!.

قد تمت مصادرة المعرفة العامة بأشكال مختلفة لما هو خاص . فهناك المعرفة المادية الجدلية التي تأسست على فلسفة العلوم الطبيعية باعتبارها تطوراً مادياً جدلياً للمدارس الوضعية الكلاسيكية . فما أن نبدأ بالوضعية كنهج مفارق للتفكير الديني أياً كانت طبيعة التفكير الديني حتى نتطور لزومياً باتجاه فلسفة العلوم الطبيعية وبنهاياتها المادية. ويعتبر ذلك أيضاً من أشكال تطور **"العقل الطبيعي"** الذي أحدث أول طلاق من العقل اللاهوتي ، ومهَّد للمدارس الوضعية.

فمنهج المعرفة المادي هو شكل من أشكال مصادرة المعرفة العامة وتخصيصها وكذلك إسلامية المعرفة التي تأتي لتصادر بدورها المعرفة البشرية العامة لتحتويها فلسفياً ضمن التخصيص الإسلامي ،

مع اعتبار الفارق الأساسي **"لقاعدة المفاهيم"** ، فالمادية الجدلية تستند إلى قاعدة مفاهيم تستمدها من فلسفة العلوم الطبيعية المستندة إلى العقل الطبيعي المفارق للعلل الغيبية خارج موضوعية الزمان والمكان . في حين تستند إسلامية المعرفة إلى قاعدة مفاهيم قرآنية تتخذ من الغيب الإلهي المتعالي بعداً أساسياً في تكوين الظاهرة المشيأة والتحكم في مسارها.

قد اتخذتُ هنا منهجاً **"مقارناً"** بقصد التبيين **"القطعي"** بين طبيعة المعرفتين.؛ الإسلامية والمادية بمنطق (التضاد) ولتوضيح سوابق مصادرة الخاص للعام .وتبيان الاختلاف إلى درجة التناقض في **"قاعدة المفاهيم".**

غير أنّ ثمة مساحة واسعة تعج بالعديد المتنوع من أنماط المعرفة ما بين الذين يؤمنون بالغيب والذين يستنبطون المادية الجدلية ، فالعقل الطبيعي وإن كانت المادية من أبرز تطوراته ونهاياته إلا أنه أسّس لأنماط معرفية انتقائية واختيارية وتوفيقية زواجت مثلاً بين **"جدل الطبيعة" و "جدل الإنسان"** ، في محاولة منها للحد من إستلاب الجبرية المادية الطبيعية للإنسان وتحقيق قدر من الحرية للإنسان بوصفة كائناً فاعلاً مريداً يمكنه التمرد على جبرية الطبيعة وشروطها المطلقة .. وقد أفضى هذا الاتجاه إلى الليبرالية والوجودية والمدارس الإنسانية بشكل عام . وهذا كله في إطار نشاط العقل الطبيعي.

وهذا التوجه في إطار إعادة تقويم العلاقة بين جدل الإنسان وجدل الطبيعة لإيجاد مساحة للإنسان ضمن نشاط العقل الطبيعي يوازيه جهد آخر مختلف لإعادة تقويم العلاقة بين جدل الإنسان وجدل الغيب بحثاً عن ذات المساحة الحرة للإنسان.

والاختلاف بين التوجهين اللذين يستهدفان غايات متقاربة فيما يختص بتحقيق مساحة حرية الإنسان ووجوده في مقابل الطبيعة واللاهوت يرجع إلى إختلاف قاعدة المفاهيم. فقاعدة المفاهيم الدينية في المعرفة تقيد حرية الإنسان بها مهما تضخمت فرديته وانطلقت إبداعيته وأنطلق نشاطه ، في حين أن قاعدة المفاهيم الطبيعية تعطي حرية وجودية أكبر لهذا الإنسان ، فيما نجده من تعبيرات حية للإحالات التي جسدها كولن ولسن في كتاباته، أو سارتر أو غيرهما.

التطور التفكيكي لقواعد المفاهيم :

تشكل قواعد المفاهيم التي ذكرناها "تأصيلاً" لمناهج المعرفة البشرية في أطرها العامة، سواء تلك التي قعّدت نفسها على جدل الطبيعة أو جدل الغيب أو جدل الإنسان ، أو ما بين هذه الجدليات على تفاوت في نسبية العلاقة ، أو المسميات أو مراحل التطور العقلي بداية من الإحيائية "ANIMISTIC" ومروراً باللاهوت وانتهاءاً بالعقل الوضعي بين مرحلتيه ، الطبيعي العام ثم الطبيعي المقيد إلى العلم .

يمت كل ذلك إلى "أصولية المعرفة" وجذورها التقليدية ، ثم بدأ العالم الصناعي المتقدم ومنذ الثلاثينات وبداية بحلقة فيينا في نسج قاعدة جديدة للمفاهيم اتسمت بالنزعة "الإبستمولوجية Epistomology" التي فتحت الأصول التقليدية السابقة للمعرفة على النسبية المفضية للاحتمالية ، وعلى التحليلية المتماهية مع الثورة الفيزيائية التي هيمنت على الظواهر بمنطق التفكيك.

فالابستمولوجيا تحرير للمعرفة من الأصولية التقليدية أوجدت قاعدة جديدة للمفاهيم بما في ذلك تحليل المفاهيم نفسها والحفر لا في تاريخ ميلادها فحسب ولكن كيفية إنتاجها ضمن شروط تاريخانية معينة للوعي والدلالة ، فاتخذت قواعد المفاهيم أطراً جديدة تحررت من ثوابت كل المناهج السابقة ، وضعية كانت أو غيبية.

التحرر المعرفي والقطيعة المعرفية :

صحيح أن الكثير من المفكرين قد اتخذ من هذا التحرر المعرفي الإبستمولوجي في ظل التحليلية النقدية العلمية المفتوحة ذريعة لإحداث قطيعة معرفية مع الأصولية التقليدية التي انبنت عليها قواعد المفاهيم التقليدية السابقة، غير أن الأمر يختلف لدى بعض آخر من أمثال كاتب هذا البحث.

فليس المحتوم هو امتشاق المعرفية لإحداث قطيعة معرفية مع **"الموضوعات"** التي إستثارتها الخبرة الإنسانية في ماضيها ، سواء أكانت غيبية أو وضعية ، وإنما المطلوب هو **"إعادة اكتشافها"** وفق توجهات المنهج المعرفي الإبستمولوجي المعاصر وأدواته التحليلية المفتوحة . فمادة المواضيع الموروثة تبقي قائمة **(الله)** سبحانه وتعالى وكذلك القوانين الطبيعية ، ولكن الذي يختلف منهجياً هو تأسيس قواعد مفاهيم جديدة للتعامل مع جدل الغيب وجدل الطبيعة ، القضية هنا إعادة اكتشاف بمنطق تحليلي نقدي علمي مفتوح.

قد حطمت الإبستمولوجيا الدغمائية الوضعية ، ولكنها حطمت أيضاً الدغمائية اللاهوتية ومترسبات الإحيائية ولكن مع وجود فارق أساسي في طبيعة تحطيم المادتين بسبب من كيفية التناول . فتحطيم البناء الوضعي الدغمائي سهل جداً في مجرى التطور الذهني بإتجاه الإبستمولوجيا ، لأنه تطور ينبعث من ذات موجبات العقل الطبيعي وفي سبيل مزيد من إحداث التطور في مجريات هذا العقل الطبيعي ، أما تحطيم المادة الغيبية فيتم في إطار نفس المنازلة والمجابهة بين العقل الطبيعي حتى ضمن مستوياته التقليدية وعالم الغيب اللامرئي ، فالإبستمولوجيا تعمد لاستبعاد الغيب إلى دافعين:

أولاً : استكانتها للمنطق العقلي الطبيعي الوضعي الموروث الذي ولدت ضمنه وإن تمردت عليه .

وثانياً : لأنّ الغيب بوصفه ما فوق الطبيعة ليس في متناول إحداثياتها وطبيعة المادة التي تعالجها.

ولكن : وهنا الجانب الإيجابي الخطير ، أن المنهج الابستمولوجي العلمي التحليلي النسبي الاحتمالي المفتوح الذي أدان ويدين كل **"ثوابت"** معرفية ودغمائية بإعادة إكتشافها وتحليلها يتخذ منطقياً ذات الموقف تجاه ثوابت الغيب بأصوله اللاهوتية والإحيائية ليعيد طرح مادته - المادة الغيبية - ضمن معايير الإحتمالات طالما أن المنطق الإبستمولوجي نفسه يرفض تأسيس مذهبية وضعية مطلقة.

إذن : ما هو فوق الطبيعة أو وراء الطبيعة يشكّل مادة للبحث ، ولكن ما مدى القابلية لبحثه وفق مواصفات المنهج المعرفي ؟! هنا الإشكالية التي تدفع البعض لاستبعاده لأنه ببساطه خارج منطوق البحث ودائرته .ولكن هذه الخلاصة تشكّل ردة في الابستمولوجيا إلى للتقيُّد بالمذهبية الوضعية التي سبق لإرثها العقلي الطبيعي أن رفض التعامل مع ما هو فوق الطبيعة . فللخروج من دائرة الردة

وإنسجاماً مع المنهجية العلمية المفتوحة يستعيد الغيب وتستعيد كل ما ورائيات الطبيعة حقها في البحث الابستمولوجي كإمكانية وجودية قائمة . خصوصاً وأن الابستمولوجيا لا تعترف بطبيعة منطقها العلمي بإكتمال المعرفة ونهايات وضع القوانين والتمذهب .

ويأتي التحدي أمام الإبستمولوجيا في مجال العلوم الإنسانية بالذات وبأكثر من مجال العلوم الطبيعية ، ففي مجال العلوم الطبيعية يمكن أن تمضي الابستمولوجيا في محاولة دراسة أثر الذبذبات التي تحدثها أجنحة بعوضة في الأرجنتين على حالة الطقس في أمريكا الشمالية . ولكن يصعب دراسة الآثار المنعكسة للاتساع الكوني اللانهائي على مزاج الإنسان واتزانه العصبي . فالإنسان ليس منفصلاً مستقلاً عن جدل الطبيعة الكونية الذي تكوّن ضمنه ويتأثر به.

فارق المرجعيتين في تأسيس قواعد الفهم:

إذا كانت الابستمولوجيا قد إعتمدت قاعدة الفهم والمفاهيم المبنية على تطور العقل الطبيعي الوضعي بإتجاه علمي مفتوح وبآليات تحليلة وتفكيكية تعالج مادة مرئية ومتوافرة وقابلة لشتى أنواع الإختبارات الملموسة ، فإنّ مشكلتها مع المؤثرات فوق الطبيعة متفاقمة ومعقدة بطبيعتها وذلك ببساطة لأنها فوق متناولها . ولذلك جاء موقف الإستبعاد ، غير أنّ الاستبعاد لم يحل المشكلة حلاً علمياً وبمنطق الابستمولوجيا المفتوح نفسه . إضافة إلى أنّ قدرات التطور العلمي وسقفه الآن المتمثل في الثورة العلمية الفضائية الفيزيائية لم تعط سوى **"مؤشرات"** يمكن للشروط العلمية التعامل معها على إستحياء . وهذا ما أسميه التعامل العلمي بإستحياء من خلال **"الإنبهار بالكون".**

وهذا الانبهار يستعيد للنفوس العالمة تجاوبها مع أحاسيس **(الفطرة)** التي تمس بأحاسيسها ولا تلامس بأدواتها العلمية مداخل الوعي العلمي لمؤثرات ما فوق الطبيعة بعد أن إنتقلت بالثورة الفيزيائية من غلاف الأرض إلى لا نهائيات الكون . ثم عادت بأدواتها لتحلل ما هو داخل الغلاف الأرضي. إذن فإنّ الذي ينقص المعالجة هو المزيد من التطور العلمي الكوني وبذات المنطق الأبستمولوجي حتى نصل إلى اللامتناهيات العلمية في كون لا متناه في تكوينه . وهذا ما لم نبلغه بعد وتحاول البشرية العالمة الوصول إليه وتطور قدراتها وخبراتها.غير أنّ مساراً آخر يشق طريقه في عالم المعرفة ليسد هذا النقص ليؤكد من ناحية على أثر ما فوق الطبيعة على الطبيعة ، ويسد من ناحية أخرى نقص المعرفة وبذات النهج الابستمولوجي الذي تمرد عليه وعلى الوضعية معاً.

هنا بالذات يفرض القرآن نفسه ويضعها قيد الإختبار الابستمولوجي . علماً بأنه يأتي من ذات العالم الغريب على أدوات الابستمولوجيا المعاصرة ، يأتي **"ليستوعب محدوديتها "**ثم يستصحبها دون عداء بالإتجاه الكوني اللانهائي . فالقرآن قد حطم في معرض إظهاره لأزلية القدرة الإلهية فرضيات السببية الجامدة ونتائجها الوضعية ، فأكد على لا نهائيات الناتج في الخلق مهما كانت محددات العناصر المركبة له :**[وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون]** "الرعد ، ج 13، آية: 4".

ومع تفكيك القرآن لقاعدة السببية الوضعية الدغمائية في سورة الرعد بحيث يجعل الخلق لا متناهياً في تنوعه مع صدوره عن متناهيات محددة هي تراب يسقي بماء واحد ، يعيد القرآن التفكيك مجدداً ليخلق من خصائص المركب الواحد تنوعاً : **[وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون]** "فاطر ، ج 22 ، آية: 12".

لحظة الفصل والوصل بين القرآن والابستمولوجيا

هنا بالتحديد لحظة الفصل والوصل ما بين القرآن والابستمولوجيا المعاصرة . لحظة الفصل لأنّ الطارق القرآني الغيبي على الابستمولوجيا من شأنه تحقيق الفصل ما بين الابستمولوجيا والوضعية ، ولحظة الوصل بذات الوقت لأنّ هناك ما هو مشترك بين القرآن والابستمولوجيا وهو الوعي المفتوح . لأنه يسمو بهذه الابستمولوجيا نحو المطلق الكوني والمطلق الإنساني وصولاً إلى **"اللاقانون"** إلى **"اللا محددات"** فالقرآن يتعامل مع الإنسان بوصف الإنسان كائناً كونياً يرقي في تكوينه ونزوعه اللا متناهي على البوتقة الوضعية وهذا ما سعى لاكتشافه أخيراً وبعد عناء وضعي ماركسي شديد مجموعة مدرسة **"فرانكفورت"** الذين حاولوا الخروج من أغلال الوضعية ولكنهم جنحوا إلى وجودية عبثية تفكيكية ؛ فكون الإنسان المطلق كون مزدحم بما هو مرئي وبما هو غير مرئي ، فالكل يبدأ محدداً في **"عالم المشيئة"** ثم ينتهي ليكون **"مطلقاً"** ، بما في ذلك الإنسان والطبيعة . تلك لحظة تذهل فيها الابستمولوجيا ، ويغمي فيها على العقل وتصعق الروح . وأهم ما في لحظة الفصل والوصل بين مطلق القرآن والابستمولوجيا العلمية تجاوز القرآن لاحتمالياتها ونسبتها المفتوحة باتجاه غائية الخلق ، غائية الخلق والتكوين ، وبذات الوقت مجرى الخلق بإتجاه الحق عبر صيرورة إلهية جدلية كونية منذ أن كان عرشه سبحانه وتعالى على الماء وإلى أن خلق الإنسان وعلّمه البيان وجعل الآخرة ما بعد الموت مثوى له فتلك صيرورة كونية تحقيقا لغائية الخلق في حد ذاته من جهة وبإتجاه الخلق نحو الحق من جهة أخرى وهذا منطق تركيب بعد التفكيك الابستمولوجي تعجز عنه المدارس الوضعية مهما كانت إدانتها للمذهبية الوضعية الجامدة **[وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين** (38) **ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون** (39)] – "الدخان ، ج 25. وكذلك فإنّ الخلق بغايته المحددة ليس ملهاة ومزاج إلهي: **[وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين** (16) **لو أردنا أن نتخذ لهواً لا تخذناه من لدنا إن كنا فاعلين** (17) **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون**(18)**]** "الأنبياء ، ج17". في حين أن الابستمولوجيا العلمية تستهدف التفكيك والتحليل ولا زالت بعد عاجزة عن الوصول إلى التركيب ، فمدرسة فرانكفورت - مثلاً - قد فكّكت الوضعية المادية لتعطى مساحة للإنسان ، ولكنها لم توضح في النهاية أي إنسان هذا الذي تريد أن تعيد تركيبه وتمنحه حريته ، والسبب أنها تحاول إيجاد الحلول ضمن البنية الوضعية نفسها ، بل أن الأفضل كثيراً من جهود مدرسة فرانكفورت ولكن عبر منهج أكثر إنسانية هو الناقد الأمريكي لبوتقة الإنسان ، رويس ، وموقف القرآن لأنه مطلق من هذه التفكيكية أنه

يستصحبها في معرض التفكيك والتحليل والنقد ولكنه يضيف إليها التركيب الغائي . وهذه من أهم اللحظات المعرفية في الفصل والوصل . لأن التفكيك والتحليل ينتهي في ممارساته إلى تفكيك الإنسان نفسه ليجعل مصيره سجلاً إحتمالياً ونسبياً مفتوحاً فتكرس الليبرالية الفردية الغريزية وتفقد حتى الروابط العائلية معناها ، فالمنهج الإبستمولوجي بقدر ما هو مفيد على مستوى التفكيك هو الخطر بعينه إذا لم يتجه نحو التركيب . ولا يتم التركيب إلا عبر وعي كوني مطلق يصدر عن الإله الأزلي ، تقدست إرادته وتباركت مشيئته وتنزه أمره .

وظيفة القرآن - بالنسبة للإبستمولوجيا المعاصرة - أنه يسد النقص في المعرفة الكونية بمنطق **" الاستيعاب "** و **" التجاوز "** معاً ، ورجوعاً إلى تركيبة القرآن نفسه بوصفه معادلاً معرفياً مطلقاً في حد ذاته لمطلق الإنسان ومطلق الوجود الكوني . فهو كتاب **(متعالٍ)** بمعني مطلق تعطى خصائص نصوصه أو آياته الكونية حتى بما فيها من الملائكة والجن مساحات وعي لا متناه في كون لا متناه ، فالخلق في القرآن يتجاوز خصائص المادة وتفاعلاتها المنضبطة إلى تفعيلها عبر حركة كونية لا متناهية.

من ذلك **" النفس "** التي هي ثمرة تفعيل المتقابلات الكونية بحيث تجاوزت بمرئياتها ولا مرئياتتها وإرادتها ووعيها ونزوعها اللامتناهي إلى درجة المطلق نسيجها الجسدي . وتوضح لنا سورة الشمس أبعاد التركيب الكوني للنفس الإنسانية التي تستدركها بعد المناهج الوضعية لعلم النفس والاجتماع :[**والشمس وضحاها**(1) **والقمر إذا تلاها**(2) **والنهار إذا جلاها** (3) **والليل إذا يغشاها** (4) **والسماء وما بناها**(5) **والأرض وما ضحاها** (6) **ونفس وما سواها** (7) **فألهمها فجورها وتقواها** (8)] "الشمس ، ج 30" . ومن ذلك الناتج المركب من عنصرين (ماء / وتراب) والناتج المختلف من عنصر واحد(**ماء فرات وماء عذب**)ومن ذلك عسل مختلف ألوانه ، ومن ذلك لبن بين فرث ودم ، خلق مركب لا متناه متجاوز كل طاقات الفهم العلمي وثوراته الفيزيائية أو البيولوجية ولكنه مقيد إلى **(غاية).**

لحظة الفصل والوصل بين القرآن والابستمولوجيا ، تعبر عن نفسها بمنطق الاستيعاب والتجاوز باتجاه المطلق المعرفي اللا متناهي . هنا بالتحديد يكون **" منهج الجمع بين القراءتين "** مدخلاً لتأسيس قاعدة المفاهيم الكونية المطلقة والجامعة أي **"القراءة الكلية "** والدخول في عالم الكليات . حيث يكون الجمع ما بين القراءة بالله خالقاً والقراءة مع الله معلماً بالقلم الموضوعي، فالأولي قراءة ربانية متعالية وصولاً إلى اللامتناهي والثانية قراءة موضوعية نسبية وصولاً إلى المحددات.

ومدخل القراءة الأولى ليس مجرد رؤية في مظاهر المخلوقات أو آيات الكون المتحرك لنستدل بها علي وجود الخالق وأسمائه الحسنى مدبراً وخالقاً ومبدعاً ليتحقق لنا الإيمان به . فبمجرد **(النظر)** الذي يعنى التقدير وليس الرؤية التي تعني الإسقاط العيني الملموس كفيل بذلك . ولا يتطلب الإيمان الصعود إلى مرحلة القراءة الأولى ، فمقوماته بالنظر متوافرة لكل الناس ، منذ أن خلقهم الله وإلى

اليوم ، فخاصية القراءة الأولى أنها **"متعالية"** نهيمن بها على القراءة الثانية ذات الخاصية الموضوعية والعلمية القلمية . فالقراءة الأولى قراءة في (الإرادة الإلهية) المتبدية في ظواهر الخلق والحركة ، أما القراءة الثانية فهي قراءة في **(ظواهر الخلق والحركة)** نفسها بحيث نتعرف على قوانينها وتشيئها ونسيطر عليها ، فالقراءة الأولى قراءة في عالم **(الإرادة الإلهية)** والقراءة الثانية قراءة في عالم **(المشيئة الإلهية).**

فالجمع بين القراءتين ليس كما ذهب إليه البعض قراءة في كتابين : الأول كتاب القرآن والوحي ، والثاني كتاب الكون المتحرك ، بحيث تفضي قراءة القرآن إلى الكليات وتفضي قراءة الكون المتحرك إلى التفاصيل ، ثم تفضي بنا القراءتان إلى الإيمان . ففي هذا القول تبسيط لحقيقة هذا المنهج ، وتضييع له بذات الوقت.

فالإنسان بالقراءة الثانية يتعرف على الظواهر الطبيعية ويقرأ قوانينها ويتعرف على التاريخ والتوزيعات الجغرافية والبشرية وكافة أنواع العلوم ، مثله في ذلك مثل أي إنسان في كل مكان في العالم وفي أي مدرسة أو جامعة.

أما القراءة الأولى فإنها ليست معنية بذلك ولا تبحث في القرآن عن دالة أو دلالات لهذه الظواهر فيما يسمونه التفسير العلمي في القرآن ، وإنما تبحث القراءة الأولى في أمر آخر هو **"الإرادة الإلهية المرتبطة بالحكمة"** في كل ذلك والمؤشرات الدالة على ما يتجاوز قدرات العلم البشري ، كمؤشرات وليس كمعرفة ، فما جئنا به في سورة الرعد أو سورة فاطر أو عن العسل أو اللبن أو النفس إنما هي **(مؤشرات)** للدلالة على اللامتناهيات الخلقية وليس مساقات تحصيل علمي ، فللتحصيل العلمي شروطه الموضوعية العلمية فلا نكون كمن يسأل الرسول عن الأهلة فذاك دخول للبيوت من غير أبوابها.

مقاربة فهم الإرادة الإلهية عبر القراءة الأولى من القرآن والمتحققة في ظواهر الوجود وحركتها ، مكانها وزمانها ، لا تعني قط - كما فهم البعض - مضاهاة القرآن ككتاب مقروء بالكون ككتاب متحرك . وهذا ما يزعجني في ما انتهى إليه الذين تناولوا كتاباتي حول الجمع بين القراءتين منذ عام 1979 وإلى اليوم.

وتعلم القراءة الأولى لا يتم عبر منهج موضوعي محدد بشروط ، وإنما يستمد تعلم القراءة الأولى من طبيعتها بوصفها قراءة بالله ، تتم بتقوى الله فيما نقدر عليه وبرجاء رحمة الله وغفرانه فيما لا نستطيع . فالقراءة الأولى قراءة **(عبودية)** ، لا ينالها من يريد علواً في الأرض وطغياناً ، ولا ينالها من يفسد في الأرض ويسفك الدماء .. ومراقيها لا تقل عن مشقة المراقي العلمية الاختبارية في معمل العلماء . فلكل درب مسالكه ومشاقه ، العابد يلح على الله كما يلح العالم على المادة ويحللها ويفككها.

ولا تعتبر نتائج القراءة الأولى المستمدة من منهج غيبي موجهات ملزمة لمن يستمع إليها ، إلاّ أن يسمعها وتقع في روعه ويكون له نصيب فيها ، علماً بأنّ القراءة لا تعتمد على تأويلات ذاتية باطنية إذ تستند إلى مرجعياتها في القرآن نفسه ، وهي مرجعيات ندخل إليها بعد الهدى الإلهي **[أقرأ باسم ربك الذي خلق**

]متعززين فيها بآليات حديثة ومستحثة لفهم القرآن وبما يقارب النهج الابستمولوجي نفسه . فبهذا النهج **(يتعزز)** الفهم ولكن ليست هذه الآليات **(المساعدة)** هي المدخل الحقيقي ، إذ أنها معززة ومساندة ومساعدة ، مثال الحفر المعرفي والألسنية المعاصرة والتاريخانية بحيث نستدل على الوحدة المنهجية العضوية الضابطة لكل آيات الكتاب وامتناع فعل الناسخ والمنسوخ وفعل المترادف والمشترك في لغة القرآن ، وإعادة إكشتاف معاني بوجوه أخرى لذات النص القرآني المطلق إنطلاقاً من أن القرآن مكنون ومجيد وكريم ومطلق وكوني متميز عن سائر الكتب السابقة عليه بوصفه كتاب الأرض الحرام وليس المقدسة ، والمتنزل مع خاتم الرسل والأنبياء الذي أتاه الله السبع المثاني والقرآن العظيم وأيده بالروح القدس وجعله أول المسلمين وميز رسالته بخصائص لم تتوافر لمن قبله ولا تتوافر من بعده.

فالآليات المعرفية الابستمولوجية المعاصرة تشكل قوة إسناد لدعم القراءة الأولى ولكنها ليست مصدرها ، لأن مصدر القراءة الأولى يستمد من ذات طبيعة القراءة الأولى أي العبودية لله سبحانه وتعالى.

القيمة المنهجية للقراءة الأولى :

إنّ من نتائج القراءة الأولى أن لها قيمة مزدوجة : فهي من الناحية الأولى تحتوي القراءة الثانية بمنطق الإيمان الدال على التسخير الإلهي للكون وليس العلو والطغيان والصراع والتضاد . ولهذا الأمر قيمته الوجودية.

والأمر الذي يتلو ذلك ويعلو عليه في القراءة الأولى هو الكشف عن المنهج الكوني القرآني والتعامل مع القرآن نفسه كمنهج معرفة متكاملة ، فبالقراءة الأولى تتأسَّس قواعد مفاهيم متكاملة ومترابطة ، تفضي كل قاعدة منها إلى قواعد أخرى بداية من التمييز بين خصائص العوالم الثلاثة للفعل الإلهي من عالم الأمر المنزه إلى عالم الإرادة المقدسة وإلى عالم المشيئة المباركة ، وفوارق التشريعات المتعلقة بها ، وحركة التاريخ ، والإصطفاء ، والتدافع وخصائص الأمة الوسط ، وعالمية الأميين ، وآفاق الصيرورة الكونية الإلهية المتعلقة بالإنسان منذ ما قبل ميلاده وإلى ما بعد موته ، وعلاقة الخلق بصيرورة الإتجاه نحو الحق ، ومداخل السلوك الإنساني في الموقف من الغيب إيماناً وكفراً ، وفوارق الخطاب الموجه إلى الناس كافة وإلى المسلمين خاصة . وخصائص الحقبة النبوية الشريفة واستحالة تكرارها ، ونوعية الخطاب القرآني الخاص بها ، وطبائع الرُّسل والنبيين وشخصياتهم ، كمثال طبيعة السيد المسيح والنفخ ، وإحيائه الموتى والقول بقتله وصلبه ، والفارق بين الأسماء الحامل فيها والمحمول منذ أن تعلمها آدم ، وعلاقة الله بالإنسان كفراً وإيماناً في عالم المشيئة وعلاقته به إختياراً وجبراً مما يحل مغاليق المتاهات الفلسفية ، ومضاهاة السنن الكونية بالسنن الإنسانية الأخلاقية ، وخصائص التشريع العائلي وما ورائيات الزنا ومداولات المال وعلاقة المسلم بالآخر وصولاً إلى النهج الكامل لمجتمع إيماني متكامل ما بعد الحقبة النبوية الشريفة وكيفية الأداء الديني بعدها ومواضيع كثيرة أخرى.

فالقراءة الأولى إذ تستصحب القراءة الثانية فإنها تتسامى بها إلى ما فوق النزوعات الغريزية من جهة ثم تستصحب ما يستجد من مناهج القراءة الثانية لتعزز به رؤاها الربانية ، فهي قراءة في **(داخلية)** القرآن وليست حساً ظاهرياً لمعانيه ولكنها كما ذكرنا ليست قراءة باطنية تأويلية ذاتية وليست عصرانية مفتعلة . وليس من دليل نهائي عليها - من بعد إستخدام المناهج الابستمولوجية العلمية - سوى مخاطبتها للسمع والبصر والفؤاد فهي قراءة مصدقة للقرآن ومكنونيته ومجيديته وكرمه وإحاطته.

مفهوم الهيمنة والنسخ :

وأخطر ما في القراءة الأولى التي تستمد من كلية القرآن مفهوم الهيمنة والنسخ الذي يتغشاه القارئ على امتداد القرآن المكنون، فالقرآن الخاتم بهيمنته على ما سبق من كتب صدقها فإنه يتولى بذات الوقت تصويب ما حُرِّف فيها بمنطق **"نقدي استرجاعي"**مثال قصة إبراهيم عليه السلام.والقرآن يتولى عبر النسخ تحديد ما للإرادة الإلهية المقدسة من شرائع وتحديد ما هو للمشيئة الإلهية المباركة بتواصل بين الحنفية الإبراهيمية التي كرست لإمامة الناس والحج والقربان شكراً على المكان وإمامة المسلمين تنزُّلاً من عالم الأمر الإلهي إلى عالم المشيئة العالمي وهكذا يتم النسخ مع كشف مواطن التزييف ومصادره للطعن في خصائص الإسلام ، ليس هيمنة ما مضى باسترجاع نقدي ونسخ ولكن هيمنة على ما يكون في حاضر الحقبة النبوية الشريفة وما بعدها .

وفوق ذلك يبرئ القرآن نفسه من التاريخانيات التي تسقط نفسها عليها عرفاً وثقافة ووعياً ليتجدد مع كل تاريخانية حاضرة ومستقبلة ، فالمدى في القراءة الأولى واسع ومتسع ويتبلور من خلالها المنهج بتراكم قواعد المفاهيم وترابطها ، . فالقرآن كون معرفي قائم بذاته.

ولكن : لماذا القرآن وليس الكتب السماوية الأخرى ؟

الإجابة علي هذا السؤال تتطلب مساقاً علمياً آخر نكشف فيه عن قاعدة أخرى للمفاهيم تتعلق بمفهوم وتطبيقات الاصطفاء الإلهي للبشر والأرض وللزمان والمكان . فكل الكتب السماوية متنزلة في الأرض المقدسة في حين تنزل القرآن وحده في الأرض الحرام. أعلى درجة من الأرض المقدسة والكتب المقدسة تخاطب أقواماً وشعوباً في إطار خاطب حصري موقوت بالزمان والمكان وبالتالي فتلك كتب عهد أما القرآن فهو للناس كافة ويتسع لمطلق الزمان والمكان ، جاء حاملاً الصيرورة الكونية كلها معادلاً بالوعي للوجود الكوني وحركته وتميزَّ نبيه بأنه نبي الأرض الحرام وخاتم النبيين بذات الوقت، وجاء بدين أكبر درجة من الإيمان وهو الإسلام ، فإبراهيم إمام الناس وموسى إمام المؤمنين أما محمد فهو إمام المسلمين بمن فيهم الأنبياء الذين أسلموا "الربانيين ".

فالقرآن - إذن - هو المقابل الديني للمفاهيم الوضعية ومنه نستمد إسلامية المعرفة، فالمعرفة المقابلة للوضعية لا تكون إلا إسلامية ولا يمكن أن نطلق عليها اسماً أخر ، كالمعرفة الدينية مثلاً والتي يمكن أن تختلط بكتب الأرض المقدسة القابلة للتحريف خلافاً لكتاب الأرض المحرمة الذي لا يمكن

أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا ما بين ذلك بحكم حرمته وليس قدسيته وهو الكتاب الوحيد الذي به حفظ ما سبق من ذكر ، وبه تصحح تحريفات ما نسب بحكم الهيمنة . كما يكون هو المعيار لما يستجد لاحقاً فيثبت وينفى ، فهو الميزان ولهذا نقيس عليه الأحاديث النبوية وإجتهادات العلماء.

نهايات الجهد العملي للمنهج:

ثم نأتي لأخطر تساؤل حول النتائج والنهايات العملية لأخذنا بهذا المنهج وإعادة طرح المعرفة الدينية مجدداً بوجه المعرفة الوضعية . هل يعني ذلك أننا أمام مشروع إسلامي حضاري عالمي يستوجب التنظيم ؟

يجب أن ندرك مسبقاً أن معركة الدين ضد الوضعية في حال الطرح الديني المعرفي المنهجي بطاقة القراءتين في القرآن واتساع الفهم لجدلية الغيب والإنسان والطبيعة ، هذه المعركة ليس من شأنها أن تحسم في هذه الدنيا التي أحيانا الله فيها مرتين وأماتنا مرتين ، أو يحيينا ويميتنا طالما أننا لا نتذكر النشأة الأولى ، فالغالب على الناس هو عدم الاستجابة بالرغم من الرسل والنبيين ، الأمر الذي اقتضى تدخل الله مرتين : الأولى في الحقبة اليهودية الإسرائيلية والثانية في الحقبة الإسلامية العربية ضمن منطق الاصطفاء للأقوام والأمكنة ، فكان النصر في الحالتين نصراً إلهياً وليس بشرياً . والحالتان يستحيل تكرارهما فكل ما نفعله عبر جهدنا المعرفي أن نحافظ على إرث التأسيس وأن ندعم بنيانه ولا يتبقي منه بعد ذلك سوى التدافع العربي – الإسرائيلي تحت المظلة الإسلامية اليهودية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .[**وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً**] "الإسراء ، ج 15 ، آية: 58". فالسابقون السابقون هم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ولا يبقى بالتساوي إلا أصحاب اليمين بعد أن يستكثر الجن من الإنس . فكل ما في الدنيا هشيم تذروه الرياح وغالباً ما يفشل البشر في اكتشاف طريق الحق أو يكتشفونه ويرفضونه.

قد سخر الله للإنسان ومنذ بدء استخلافه الآدمي مستويات في عوالم ثلاثة : عالم الأمر والملأ الأعلى حيث كان آدم وهبط دون ذلك ، ثم عالم الإرادة حيث كان بنو إسرائيل ، القرية الرغدة وشق البحر وهبطوا دون ذلك ، ثم عالم المشيئة وهبط العرب دون ذلك ، فتترى الفتن والخطوب علهم يرجعون ، وجزاء كل سيئة مثلها إلا من رحم ربي . فقاعدة المفاهيم الإسلامية لها نسقها الخاص وحضارتها الخاصة . غير أنّ أوضاع مجتمعات ما بعد الصناعة والاستقطابات العالمية للإنسان لم تفد في حل مشكلاتها عبر القياس على المجتمعات البدوية والرعوية والزراعية والتجارية والحرفية ما قبل الصناعة .

ولذلك ركز الخطاب القرآني بتوسع على الحالتين الإسرائيلية والعربية بنفس المستوى تقريباً الذي ركز فيه على حال الأقوام من بعد نوح حتى شبه القرآن لدى البعض بأنه يولي تلك الأقوام الحيز الأكبر من اهتماماته تاركاً لمن تبقى متاهات تتعلق بالتأسي والامتداد ، فمنهم من قال إنه خطاب عربي أو يعني بالحقبة النبوية الشريفة وما قبلها ولا يتطرق لما سيأتي في مستقبل متغيرات الأزمنة والأمكنة . كما أن التركيز هو دائماً على مواجهة الشرك الضمني البواح والتأكيد بعد ذلك على وحدانية الله والبعث

الآخروي وطرح موجبات العبور الصالح في الدنيا . فكأنما القرآن هو مستودع هذه الرباعية فقط **(نبذ الشرك ـ وحدانية الله ـ العمل الصالح ـ البعث الآخروي).**

فالأمثلة القرآنية أمثلة تخاطب مجتمعات ما قبل الصناعة وتركيب الأسرة الزراعية والريفية القبلية وحتى البحرية التي تقوم على الصيد ومسخرات الحمير والبغال والخيل ، وتخوف ركوب البحر حتى أن القرآن ليتماهى مع بعض المظاهر الاجتماعية والسلوكية في تلك المجتمعات ما قبل الصناعة إذ لم يتطرق لتحريم الرق بالمستوى الذي حرّم به لحم الخنزير أو تعدد الزوجات وبدأ أنه يقر دونية المرأة في الشهادة مع فرض الخمار عليها الخ.. مما يجعل فقهاء الإسلام المعاصر في حرج من أمرهم تجاه المشكلات النوعية المتجددة بحيث أن الفقيه المتمكن الذي يستشهد بآرائه هو فقط من يكون قادراً على فهم واسترجاع أحوال تلك المجتمعات السالفة ثم الاجتهاد في المشكلات المعاصرة عليها وهكذا أصبح **(القياس)** أحد الأصول بعد القرآن والسنة والإجماع.

إضافة إلى أنّ **(فرض)** الدين على المجتمع بالمواصفات التاريخية السابقة يحتاج إلى **"تدخل إلهي"**، سواء أكان تدخلاً **"محسوساً"** ملموساً كما كان في الحقبة اليهودية الموسوية ، أو تدخلاً **"غيبياً"**كما كان في **"مطلع"**الحقبة الإسلامية الأمية المحمدية الأولى . ويجب أن نلحظ بوضوح أن كافة النبوّات لم تجد الاستجابة المطلوبة من الشعوب والأقوام ما عدا نبوّة موسى ونبوّة خاتم الرسل والنبيين ، وأتى الاستثناء عبر التدخل الإلهي ، المحسوس ثم الغيبي : **[ثم أرسلنا رسلنا تترى كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلنهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون]** "المؤمنون ،ج18 ،آية: 44"

فالذي يتبقى من الدين هو **"إرث عام"** يتداخل مع الطبائع البشرية ومكونات العرف والثقافة إلى مستوى التحريفات في كثير من الأحيان ، أي تحول الدين من معرفة إلى إيديولوجيا تخالطها الكثير من الأفكار.

غير أنه يتبقى أمر واحد للحفاظ على الدين ، هو **"التدافع"** والذي من دونه لهدمت دور العبادة ، وليس خربت بفعل المعارك العسكرية . والهدم انصراف ، بالتدافع تبقى جذوة الدين عبر العصبيات **:[ولو لا دفع الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً]**"الحج ، ج17، آية: 40". وهذا تدافع عالمي عام غير أن التدافع الأكثر فعالية هو التدافع ما بين العرب تحت مظلة الإسلام والإسرائيليين تحت مظلة اليهودية أياً كان فهم المتدافعين لدينهم في إطار التثبيت العصبوي. ويرتبط الأمر هنا باصطفاء الأرض والبشر ومحددات الزمان والمكان ـ كما ألمحنا سابقاً ـ هكذا نجد أنّ إعادة إنتاج الحقبة النبوية الشريفة بالنسبة للمسلمين ، وإعادة إنتاج الحقبة الموسوية بالنسبة لليهود ، وبالقوة البشرية الذاتية فيما تطرحه الحركات القائمة اليوم أمر خارج موجبات ومقومات ما تبقى من الإرث الديني العام.

غير أنّ هناك ممكناً وضرورياً يستنهض تلقائياً وبتقدير إلهي بموجب التدافع العربي - الإسلامي بوجه الإسرائيلي اليهودي كما أوضحت مقدمة سورة الإسراء ونهايتها ومقدمة سورة الحشر وهو التمسك بالدين نفسه على أن يتجه علماء الأمة لترقية وإحكام ثوابت هذا الدين بداية من التأكيد على القيمة المعرفية للإيمان بالله الواحد الأحد لإظهار الرؤية الوضعية وهنا يأتي دور إسلامية المعرفة متى فهمت في إطار القرآن ومطلقه وبما يعادل مطلق الإنسان ومطلق الوجود وعبر الجمع بين القراءتين والإستهداء بالعلاقة الجدلية ما بين الغيب والإنسان والطبيعة وإسترداد العلم من براثن القبضة الوضعية حيث يتعزز الدين حين يحلق العلماء بعلمهم في رحاب الكونية والكون:

[ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور] "فاطر ، ج 22 ، آية: 28" **[يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير]** "المجادلة ، ج 282 ، آية: 11" . ولكن حين يجنح بعض الوضعيين لإستلاب العلم بإتجاه الشيئية بما في ذلك تحويل الإنسان إلى شئ وتجريد العلم من كونيته ندخل جميعاً في البوتقة الظلامية ، فيأتي الدين مجدداً ليسترد بضاعته بنفي الوضعية عنها ، وهذا هو أساس إسلامية المعرفة ، أى المعرفة الكونية غير الوضعية.

وقد بدأت الحضارة الغربية - كما ذكرنا - في ارتياد أولى مسالك الطريق ولكن ليس باتجاه الكونية بعد ، ولكن بحصار الوضعية كفلسفة للعلوم الطبيعية والإنسانية بداية بحلقة فينا وامتداداً إلى مدرسة فرانكفورت .. والظاهر في الأولى **(فينا)** التركيز على تفكيك دغمائية العلوم الطبيعية ، كما أن الظاهر في مدرسة **"فرانكفورت"** تفكيك المادية الوضعية الجدلية . غير أنّ هذا التفكيك ذو الطبيعة الإبستمولوجية المنفتحة لا زال في إطار الوضعية ولم يتم التخلص منها بعد.

فحين يسترد الدين المعرفة العلمية إليه باتجاه الكونية ويبرئها من الوضعية يكون قد قام بعملين مزدوجين في كل واحد ، فمن ناحية يدين الصراع اللاهوتي المسيحي مع العلم، ومن ناحية أخرى يدين توجهات الوضعية في العلم فلا تكون المعرفة بعد ذلك إلا إسلامية ، مبرئاً الدين من اللاهوت بذات الوقت الذي يبرئ فيه العلم من الوضعية .

فمشكلة الوضعية أنها قيدت العلم بمخططها الذي رفض التعامل مع الظواهر التي لم ترتق أدواته للتعرف عليها وقياسها مختبرياً ، وفي حمى رفضه لها يتناسى أنها ظواهر حية في حين أن مهمة العلم الدائمة أن يتعرف على ما لم يتعرف عليه بعد وإلا أصبح العلم مالكاً للحقائق وكفّ أن يكون علماً .

فنحن في عصر العلم والعالمية وقد تغيرت نوعياً إشكاليات الفكر والواقع . هنا تقف إسلامية المعرفة بكامل أطرها المنهجية لتطرح البديل المتجاوز للوضعية في عصر العلم والعالمية ، حيث نعيد فهم ديننا وفي هذا الإطار بوصفه **"عالمية خطاب" "وحاكميه كتاب"** و **"شرعة تخفيف ورحمة"** يتوجه إلى كافة مجتمعات العالم المعاصر باستيعاب وتجاوز لكافة المناهج المعرفية والأنساق الحضارية

و بما يؤمَّن التداخل بالوعي مع إشكاليات العالم المعاصر والتي لا تجد حلاً موضوعياً لها إلا بانتقال الإنسان من سجن الوضعية إلى آفاق الكونية عبر كتاب كوني هو القرآن بالذات.

هذه هي **(الكلية)** الضابطة لنسيج قواعد المفاهيم التي نستمدها من القرآن ، وعبر الاستنباط وإعمال القراءة الأولى للإحاطة بالمتغيرات خلافاً للخطاب القرآني المبسط والمباشر الذي توجه للأميين العرب في حينها أي خطاب ما قبل المنهجية المستمدة من القرآن نفسه وقبل استكمال الوحدة العضوية المتداخلة للعالم أجمع وما قبل الصناعة ، ولهذا قلنا بالعالميتين ، الإسلامية الأمية الأولى ، ثم الإسلامية العالمية الثانية وإستنادها إلى منهجية القرآن بمستوى معرفي معاصر ، والإرث عن خاتم الرسل والنبيين وليس رسالة ثانية وذلك بموجب سورة فاطر الأيات **"31، 32"** وبحكم مجيدية القرآن ومكنونيته وكرم عطائه المتجدد .

إنّ تفعيل هذه النقاط ، أو المرتكزات أو الأساسيات يتطلب جهداً **"جماعياً** " من ناحية " **ومؤسسياً**" من ناحية أخرى . وقد قامت بعض الجهود التي وقفت على أعتاب هذا المشروع ثم أجهضت لأسباب ليس هنا مجال تبيانها . فإن نشرع في تأسيس ما يقابل الوضعية الدنيوية بعمقها العالمي وهيمنتها في عصر العولمة الوضعية فهذا جهد يحتاج إلى تدبر . بل إن كل مشاريع البعث الحضاري الإسلامي النابتة من جذوة عصبيات التدافع والتي تستند إلى القياس و الإرث التاريخاني دون أن تنفتح على القراءة الأولى في القرآن ومنهجيتها لا تساعدنا إلا بالقليل في عصرنا المتغير هذا . بل إنّ الجهد الذي طرحته هو المدخل الذي يحقق لنا التدامج بين المشروع الديني العالمي ومتطلبات التعددية والتنوع في عصر العولمة . فنحن نضع جدل الصيرورة الكونية بديلاً عن جدل الوضعية ، ومع إدراك تام لفوارق النسق بين المراحل الدينية المختلفة ، والمستويات التي أجريت فيها منذ آدم وإلى محمد ، عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه . لأننا إذا لم نتفهم هذه الخلفيات كلها فسيصعب علينا فهم حقيقة ما يجب أن نفعل .

تطبيق إسلامية المعرفة على الواقع الموضوعي :

باسترداد العلم الذي سخرت به السماوات و الأرض ، ظواهر وحركة للدين ، بعد الإخلال الوضعي فإنّ أولى مهمات إسلامية المعرفة في الواقع الموضوعي المعيش هو التأكيد على كونية الإنسان مجدداً وربطه بالمنهج الرباني الكوني للتعامل مع مشاكله التطبيقية وإشكالياته العقلية والأخلاقية .

وقتها سنكتشف أن إسلامية المعرفة ليس مجالها فقط القلب والتدين التطهري والآخرة وإنما مجالها الواقع الحياتي الموضوعي الحي . والتغلب على الأزمات والآثار الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية الناتجة عن قصور وإضلال المذاهب الوضعية .

فإسلامية المعرفة الكونية تؤكَّد على العائلية كأساس للوحدة الاجتماعية وليس الفردية ، العائلية المستمدة من زوجية الخلق كله ، في المادة وفي النبات والحيوان والإنسان ومتقابلات النظام الفلكي : [**ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين لعلكم تذكرون**] " الذاريات ، ج 27 ، آية: 49 " وبالزوجية تنفي

الفردية الوضعية وتنفي معها متعلقاتها الليبرالية الإباحية فتكون شرائع منع الزنا واستبعاد التبني وحكمة التعدد وأحكامه ، وتحديد دائرة القرابة المحرمة .

وبكونية الإنتاج المستمدة من الخلق الإلهي تكون فريضة الزكاة المقابلة ، فكل ما ننتجه مركب على قوة عمل إلهي تحكم في خصائصه المادة وفي إقترانها ببعضها ، حركة وأسباباً . ويتعزز ذلك بالانفاق ومنع الربا الذي يربو في أموال الناس متجاوزاً الضعف المضاعف ومع منع الإكناز.

فالبناء الإقتصادي الإسلامي كما هو البناء العائلي منظومتان مستمدتان من الرؤية الكونية وليس الوضعية للوجود . فالرؤية الوضعية ليس بمقدورها أن تفسر لماذا لا تباح العلاقات الجنسية حتى بين الذكور ، وليس بمقدورها أن تفهم معنى الزكاة ومعنى الإنفاق والتي تحاول مقارنتها ومضاهاتها بالضرائب والزكاة والإنفاق ليسا من الضرائب في شئ ، ومآلهما للمجتمع وليس للدولة.

ومن البنائية العائلية إلى البنائية الإقتصادية بمنطق الجمع بين القراءتين يمتد السياق إلى البنائية السياسية المركبة عليها ، فلا تنابذ ولا صراع ولو تقنن بالديمقراطية وإنما السلم للناس كافة بلا دعاوى وصراعات : [**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام** (204) **وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد** (205) **وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد** (206) **ومن الناس من يشري نفسه إبتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد** (207) **يا أيها الذين آمنوا أدخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** (208)] "البقرة ، ج 2".

وكما لا ديمقراطية تقر بالصراعات المقننة على حساب السلم كافة ، لا شمولية تصادر الإختيار الحر ، فأولي الأمر "منا" بالإختيار الحر ، وليسوا "علينا" بالغلبة وإمارة الإستيلاء ، وليس "فينا" بالإرث الإجتماعي والتاريخي : [**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**] "النساء ، ج5 ، آية: 59" . فليس المطلوب طاعة السادة والكبراء : [**وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا** (67) **ربنا آتهم ضعفين من العذاب وألعنهم لعناً كبيراً** (68)] "الأحزاب ، ج 2".

ويمكن أن نمضي في تداعيات الوصل والصلة الكونية بين هذه البنائيات المتداخلة والمترابطة فيما بينها إلى ما لا نهاية من العائلة وإلى المجتمع ، ومن الاقتصاد وإلى السياسة ، ومن فعاليات العقل وإلى قيم الأخلاق ليتحقق في الوجود ذلك الإنسان المطلق الذي يدخل السلم مع ربه ومع نفسه ومع مجتمعه ومع كونه الطبيعي المسخر له بقوة القوانين الطبيعية التي يسترد الدين فلسفتها إليه ، مبرأة من الوضعية والشرك والكفر . لينتهي عبد الله في النهاية حراً كالطير في جوّ السماء ولا يمسكهن إلا الله ، وليس كعبد البشر المملوك للبشر ، قناً كان في الأرض ، أو عاملاً في مصنع ، أو جندياً يفسد في الأرض، فكل هذه الأنظمة الطبقية إنما تعبد طبقاتها العليا ، التي لا تملك لها رزقاً في السموات والأرض : [**ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون** (73) **فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وانتم لا تعلمون** (74) **ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً**

فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون (75) **وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** (76) **ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلاّ كلمح البصر أو أقرب إن الله على كل شئ قدير** (77)] "النحل ، ج 14".

وفي مقابل مصادرة الإنسان المستعبد وحريته يقول الله - سبحانه - [**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** (78) **أو لم يروا إلى الطير مسخرات في جوّ السماء ما يمسكهن إلا الله إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون**(97)] "النحل ، ج 14".

فالدين الذي يقول عنه الوضعيون أنَّ مكانه القلب وليس العقل هو الوحيد الذي يستعيد للعلم مكانته الكونية ويخرج به وبالإنسان من آثار البوتقة الضيقة المحدودة . وهكذا تكون إسلامية المعرفة ، ساعية بالتطبيق في الواقع المعاشي عبر معرفيتها . وكذلك ليس ينقص من إسلامية المعرفة أنها تحولت بالدين من الضيق الإيديولوجي حيث يريد الوضعيون مصادرته باسمها إلى آفاق المعرفية العلمية الكونية.

القراءات التى تُستصحب في هذا البحث :

1- إميل بوترو : العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ، ترجمة د. أحمد فؤاد الأهواني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1973.

2/ د. برهان غليون : إغتيال العقل ، محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية الطبعة الثالثة من ص 57، مكتبة مدبولي ، القاهرة عام 1990.

3- د. تركي على الربيعو : بين المؤرخ والأدلوجة ، قراءة في تاريخانية العروي - مجلة الإجتهاد - عدد 25 - السنة السادسة - خريف 1415 هـ / 1994م – ص 153 – 173.

4- ثيودور أويزرمان : تطور الفكر الفلسفي : ترجمة سمير كرم : ط1 ، دار الطليعة ، بيروت 1977.

5/ جون هرمان راندال : تكوين العقل الحديث - جزءان - ترجمة جورج طعمة ، دار الثقافة بيروت - الترجمة العربية - الجزء الثاني - مفهوم العالم كنمو وتطور - الصفحات 111 و162.

6/ د. عبد السلام بن عبد العال ود. سالم يفوت : درس الابستمولوجيا ،الطبعة الأولى دار ، توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1985 ص 45 و46.

7/ محمد أبو القاسم حاج حمد :

- التأسيس القرآني للمجتمع المعاصر ، ضمن مناقشات "ندوة تجديد الفكر الإسلامي ، نحو مشروع حضاري إسلامي معاصر " ، المركز الإسلامي ، مالطا 12 نوفمبر 1989.

- التوالي السياسي بين الشورى والديمقراطية - محاضرة - مركز الدراسات الإستراتيجية ، الخرطوم ، الأربعاء 26 رمضان 1419هـ ، الموافق 13 يناير / كانون ثاني 1999م.

- الحركات الدينية ، الإشكالية المعرفية وعالمية الثقافة المعاصرة ، ندوة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، طرابلس / ليبيا – أغسطس /آب 1991، صفحات 26 - 37 .

- العالمية الإسلامية الثانية ، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة - مجلدان -
- British West Indies- International Studies and Research Bureau, -الطبعة الثانية 1996.
- علاقة الدين بالدولة في إطار المفاهيم الدالة على علاقة الله بالإنسان - جامعة أم درمان الأهلية - السودان - محاضرة بتاريخ الأربعاء 25 ربيع الأول 1421هـ ، الموافق 28 يونيو / حزيران 2000م.
- (منهجية القرآن المعرفية ، أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية - وهو كتاب فرغ من تأليفه في واشنطن في شهر ربيع الآخر 1411 هـ الموافق نوفمبر / تشرين الثاني 1991م . وقد تبنى المعهد العالمي طباعته وتعميمه في تداول محدود ، ثم عقد له ندوة في القاهرة في آذار / مارس 1992م حيث شارك فيها جمع من الأساتذة من ذوي التخصصات المختلفة وقدم لها الدكتور طه جابر العلواني رئيس المعهد العالمي - كما تناولها أساتذة آخرون من خارج الندوة بتعقيبات مكتوبة وقد جمع كل هذا الانجاز في كتاب اعد للصدور بنفس العنوان وقد شارك في الندوة كل من :

د. عبد الوهاب المسيري ود. أحمد فؤاد الباشا ود. محمد بريش
ود. حامد الموصـــلي ود. على جمعة ود. محمد الحسن بريمة
ود. منى أبو الفضل ود. سيف عبد الفتاح ود. أحمد صدقي الدجاني
ود. ممدوح فهمي ود. محمد عمارة ود. جمال عطية

أما الذين بعثوا بتعقيباتهم كتابة فهم :

الشيخ محمد الغزالى (رحمة الله) ود. محمد صالح ود. عادل عبد المهدي
د. برهان غليون ود. زياد الدغامين ود. إبراهيم زيد الكيلاني
ود. أكرم ضياء العمري ود. محمد الراوي ود. ماجدعرسان الكيلاني
ود. عبد الرحمن بن زيد الزبيدي والأستاذ حكمت بشير ياسين

8- د. محمد عابد الجابري - تكوين العقل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الرابعة ، بيروت ، ص 44 - 1989م .

9/ دكتورة منى فياض : العلم في نقد العلم ودراسات في فلسفة العلوم ، الطبعة الأولى ، دار المنتخب العربي ، توزيع المؤسسة الجامعية ، بيروت 1995/ 1415هـ، ص 130 إلى 135.

10/ د. محمد وقيدي : مهام الأبستمولوجيا ، ضمن كتاب –"إشكاليات المنهاج في الفكر العربي والعلوم الإنسانية " دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ص 11- 18.

11- ميشال فوكو : حفريات المعرفة - ترجمة سالم يفوت ، ، الطبعة الأولى ، المركز الثقافي العربي - ص 96، 1987.

12- ول ديورانت : قصة الفلسفة ، ترجمة د. فتح الله محمد المشعشع ، ط 3 مكتبة المعارف ، بيروت 1975.

ملحق الآيات الدالة على الموضوعات

مقدمة الملحق:

آيات جدل الصيرورة الكونية من خلال القرآن تحولاً بالخلق نحو الحق:

سورة البقرة ، ج 1 ، الآيات من 28 وإلى 30.

سورة غافر ، ج 24 ، الآية رقم 11.

سورة الواقعة ، ج 27 ، الآيات من 58 إلى 62.

سورة الكهف ، ج 16 ، الآية 109.

سورة إبراهيم ، ج 13 ، آية 48.

سورة لقمان ، ج 21 ، الآيات من 22 وإلى 30..

أولاً : مصطلح النسخ بوصفة دالاً على نسخ الشرائع والدورات التاريخية للأمم التي نهجت عليها ، نسخ الخطاب الإلهي الحصري لليهود بالخطاب الإلهي العالمي للناس عبر النبي الأمي . ونسخ شرعة الإصر والأغلال بشرعة التخفيف والرحمة.

- سورة الأعراف ، ج 9: ، الآيات من 155 وإلى 158.
- سورة البقرة ، ج 1 ، الآيات من 106 إلى 108.
- سورة المائدة ، ج 6 ، الآيات من 32 وإلى 50.

ثانياً : إعادة ترتيب آيات القرآن الكريم (وقفاً) لإخراجه من دائرة أسباب النزول والمكي والمدني وإكسابه وحدته العضوية المنهجية للتفعيل في حاضره وإطلاقه نحو المستقبل هدى وبشرى لمن يلحق .

- سورة النحل ، ج 14 ، الآيات من 101 وإلى 102.

ثالثاً : بحكم شرعة التخفيف والرحمة الناسخة لشرعة الإصر والأغلال كخارق عقاب يماثل خارق العطاء الإلهي لبني إسرائيل إمتنع خارق العطاء في الإسلام حتى لا تماثله في المقابل شرعة إصر وأغلال:

- سورة الإسراء ، ج 15 ، الآيات من 90 إلى 94..
- سورة الأنعام ، ج7 ، الآية 35.

رابعاً : أما تنزل الملائكة المسومين والمردفين فقد كان غيباً غير مرئي وغير محسوس ، إذ تميز ضربهم بما فوق الأعناق وليس الرقاب ، وضرب البنان وليس توثيق الأيدي.

- سورة الأنفال ، ج 9 ، الآيات من 12 وإلى 13.

مقارنة بالضرب البشري :

سورة محمد ، ج 26 ، الآية 4.

خامساً : العصمة الإلهية للقرآن وللسنة النبوية الشريفة تماثلاً في الحالتين بمواقع النجوم:

- سورة الواقعة ، ج 27 ، الآيات من 75 وإلى 80.

سورة النجم ، ج 27 ، الآيات من 1 وإلى 5.

سادساً : الآيات الدالة على الصيرورة الكونية للقرآن باتجاه غائية الحق الذي خلق الله به الخلق ، واستمرارية العطاء القرآني عبر الإرث المحمدي بعد ختم النبوة والرسالة :

أ/ الغائية :

- سورة الأنبياء ، ج 17 ، الآيات من 16 وإلى 18.
- سورة الدخان ، ج 25 ، الآيات من 38 وإلى 40.

ب/ الظهور العالمي الحتمي:

- سورة التوبة ، ج 10 ، الآيتان 32 و33.
-سورة الفتح ، ج 26 ، الآية 38.
- سورة الصف ، ج 28 ، الآيتان 8 و 9.

ج/ التوريث وإستمراريته:

- سورة فاطر ، ج 22 ، الآياتان من 31 وإلى 32.

د:/ مجيدية القرآن الذي لا يبلى ، ومكنونه الذي يتكشف وكرمه في العطاء الذي يتجدد . (مطلقية القرآن الكونية.:

- سورة الواقعة ، ج 27 ، الآيات من 75 وإلى 80.
- سورة ق ، ج 26 ، الآية 1.
- سورة البروج ، ج 30 ، الآيتان 21 و22.

سابعاً : اقتصر حكم الجزية على المرتدين من أهل الكتاب فقط ، وهي ليست على غير المرتدين منهم الباقين على دينهم من يهود أو نصارى.

- سورة التوبة ، ج 10 ، الآيتان 27 و28.

ثامناً : تطورت الحاكمية الإلهية في النسق اليهودي من حاكمية إلهية إلى حاكمية استخلاف المرتبطة بخصائص عطاء إلهي خارق وتقديس الأرض:

- سورة البقرة ، ج 2 ، الآيات من 246 وإلى 251.
- سورة النمل ، ج 19 ، الآيات من 15 وإلى 44.
- سورة ص ، ج 23 ، الآيات من 17 وإلى 26.
- سورة الأنبياء / ج 17 الآيات من 78 وإلى 82.

سورة سبأ ، ج 22 ، الآيات من 10 وإلى 14.

تاسعاً : نسق النظام الإسلامي السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري المتكامل من "السلم كافة"وإلى "أولى الأمر منكم" وإلى "عدم تماثل" العبودية لله بالعبودية بين البشر.:

- سورة البقرة ، ج2 ، الآيات من 204 وإلى 208.
- سورة النساء ، ج 5 ، الآية 59.
- سورة النحل ، ج 14 ، الآيات من 74 وإلى 79.

عاشراً : مواصفات ومماثلات عقوبة النكال الإلهي في السرقة بإعتبارها قمة شرعة الإصر والأغلال والإنتقام الإلهي:

- سورة المائدة ، ج9 ، الآيات من من 38 وإلى 40.
- سورة المزمل ، ج 30 ، الآيات من 20 إلى 26.

- سورة البقرة ، ج1 ، الآياتان 65 و66.